

الايمان بالله في القرآن الكريم

للشيخ محمد قطب

من الطبيعي أن يكون الإيمان بالله هو أصل العقيدة وبابها الأكبر .. فمنه تنبع كل ألوان الإيمان الأخرى التي لا يستقيم إيمان الإنسان إلا بها ، ولكنها هي لا تستقيم بغير الإيمان بالله ..

والإيمان بالله هو إيمان بالغيب .. فإله سبحانه « لا تتركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (١)

ونذلك كان أول وصف للمؤمنين في مفتتح سورة البقرة أنهم هم (الذين يؤمنون بالغيب) : (ألم . فلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون) (٢)

والإيمان بالغيب منحة ربانية لهذا المخلوق الإنساني الذي كرمه الله وفضله : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (٣)

إنه لم يشأ - سبحانه - أن يجعل الإنسان حبيسا في إطار العالم الذي تدركه الحواس ، بل شاء له - فضلا منه - أن ينطلق إلى ما وراء الحواس ، فينفسح عالمه ويتسع ، وتنطلق روحه وترتفع ، فيضير أرقى وأخف ، وأكثر إشراقاً وشفافية ..

ولكن الجاهلية المعاصرة - جاهلية العلم والمعلومات ! - تأبى هذه الكرامة الربانية التي تفضل الله بها على الإنسان ، ففضله بها على كثير من خلقه .. وتريد أن

١ - سورة الانعام ١٠٣ ٢ - سورة البقرة ١-٢ سورة الاسراء ٧٠

تحصره في دائرة حواسه .. فتبلغ بها الضلالة أن تسمى الإيمان بالغيب إيماناً بالخرافة
ثم تنعى على المؤمنين « الذين يؤمنون بالغيب » فتقول إنهم رجعيون متخلفون !
ومعروفة مشهورة قصة الرجل الذي جن فصار يمشي على يديه ورجلاه إلى أعلى
ورأسه منكس إلى أسفل ، ثم يقول عن الأسوياء : انظروا إلى المجانين الذين
يسرون على أقدامهم ! ! ألا ما أضل الجاهلييات جميعاً .. وفي مقدمتها جاهلية
القرن العشرين !

إن الله قد أودع في الفطرة أن تبحث عنه ، وتنتجه إليه ، وتعبده :
(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم :
ألمست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا !) (٤)
ولسنا نعرف كيف تم هذا الأشهد ، ولا متى ..

ولكننا نلاحظ أشياء تدلنا على أن الفطرة تتيقظ ، فتنتبه باحثة عن الله الذي
أشهدت عليه في عالم الدر ، وقد تهتدي ، فتعرفه على حقيقته ، وتعبده حق
عبادته .. وقد تضل ، فتصوره على غير حقيقته ، وتتصور معه إلهة أخرى ، ثم
تعبده على غير ما ينبغي لله سبحانه من إخلاص العبودية والطاعة له ، فتشرك معه
في العبادة تلك الآلهة الأخرى .. ولكنها في الحالين تبحث عن الله ، وتوجه إلى
الله ، وتمارس لونا من العبودية لله ..

هنالك أوتار في القلب البشري أعدها الله الخالق البارئ المصور سبحانه
لتتلقى إيقاعات معينة فتتهتز .. فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله .. ثم
تضل أو تهتدي حسب طريقة تَوَجَّهها .. ولكنها في كل حال تنطلق إذا اهتزت
الأوتار ، والإيقاعات دائمة لا تنقطع في ليل أو نهار !

الكون أعظم إيقاع يوقع على أوتار القلب البشري !
الكون بضخامته الهائلة ..
والكون بدقته المعجزة ..

كلاهما توقع هائل لا يمكن أن ينجو منه قلب إنسان .. إلا أن يكون قد فقد إنسانيته ألبة وعاش كالحوان !

الكون بضخامته الهائلة التي لاتصل إلى مداها العيون .. بل لا تصل إلى مداها الأفكار !

كان الإنسان ينظر بعينه المجردة فلا يصل إلا إلى أبعاد قريبة من الأرض وأبعاد قريبة من السماء .. وكانت هذه وتلك تهوله لضخامتها ؟

ثم بدأ يصنع المناظير ، فامتدت رؤيته في الأرض ، وأوغل ببصره في السماء .. غزادت الضخامة في المحسوس .. وظلت تتزايد مع كل منظر جديد ، يكشف له من أغوار السماء خاصة ما لم يكن يراه من قبل ..

وتضخمت المناظير .. وزادت ضخامة الكون في حس الإنسان ..

ثم تعدت الضخامة المحسوس .. وتحولت إلى أرقام !

هذا نجم يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية .. ويراه المنظار !

والحسبة التي تساوي أربعة آلاف سنة ضوئية حسبة لا يتصورها العقل .. إلا عن طريق الأرقام !

ثم جاء المنظار الإلكتروني .. إنه يسجل أبعاداً لا ترى ! إنما تكتب في لوحة الأرقام !

ضخامة لا يمكن أن ينجو من وقعها الحس ، ولو أراد أن يتفلسف .. ولو كابر أمام الناس !

ويهتز وتر في القلب .. على هذه الضخامة .. فتنتطلق الفطرة تبحث : مَنْ وراء هذه الضخامة المعجزة ؟ من الخالق ؟

ثم تهتدي .. فتعرف الخالق على حقيقته .. أو تفضل فتسميه « الطبيعة » .. أو تسميه كائنات من كان !

ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك !

هذا الكون الضخم الهائل لا يتحرك خبط عشواء ..

إنه يسير في حركة دقيقة تبلغ حد الإعجاز ..
هذه الملايين ، بل ملايين الملايين ، من النجوم في الكون لا يلتقي اثنان منها
في هذا الكون العريض ، ولا يقع بينهما صدام .. إلا أن يشاء الله ..
(كل في فلك يسبحون) !

وتربطها جميعاً تلك الطاقة المعجزة التي تسمى « الجاذبية » ..
تربطها بحيث تتحرك كلها في حركة منتظمة .. لا هي تتوقف ولا هي تصطدم ..
إلا أن يشاء الله !

(والشمس والقمر بحسبان !)
حسبان دقيق لا يخطئ !

تستطيع أن تنشئ جداول فلكية تحسب فيها الكسوف والخسوف لألف عام ..
مالم يغير الله نظام الكون !

بل الكون هو الساعة العظمى التي تضبط عليها الساعات الفلكية الدقيقة .. التي
تحسب الوقت بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة (جزء على ستين من الثانية !) بل هناك
اليوم ساعات تحسب بجزء من مائة جزء من الثانية .. مضبوطة كذلك على الأفلاك !
ثم ..

هذا العصفور الجميل الذي يسقسق في الفضاء !
هل سمعت هذه السقسقة ذات الأنغام الدقيقة البالغة الدقة ؟ !
وهذا الطائر الملون الريش ..

هل رأيت كل ريشة مفردة كيف لونت ؟ كيف تداخلت الخطوط والألوان
على مئات أو ألوف من الشعيرات كل تأخذ مكانها في اللوحة الدقيقة البالغة
الإعجاز ؟ !

والزهرة الدقيقة الملونة .. والكائن الدقيق الذي لا يكاد يرى بالعين وهو حي
مكتمل الحياة !

أى إعجاز .. تلك الدقة البالغة فى ذلك الكون الضخم الذي يروع بضخامته
الحس والأبصار !؟

وأى قلب يمكن أن ينجو من توقعات تلك الدقة المعجزة ولا ينبعث يبعث عن
الله .. سواء ضل بعد ذلك أم وصل إلى هداه !؟



الموت والحياة كذلك من الإيقاعات المؤثرة فى أوتار القلب البشري ..
فى مرحلة الطفولة ذات الحيوية الفائضة والخيال الذي لا يميز الحقيقة ، يتصور
الطفل الحياة فى كل شيء بغير تمييز .. حتى الحائط .. حتى الأرض .. فضلاً عن
اللعبة المصورة على شكل حيوان أو إنسان .. وحين يقع على الأرض أو يصطدم
فى الحائط وتؤله الصدمة يتصور أن الأرض هي التي ضربته ! ولذلك يرضى
رضاً حقيقياً حين تأتي أمه فتنتقم له بأن تضرب الأرض بيدها ! ويتصور أن ضربة
الأم لها قد أوجعتها كما أوجعته هي .. فيكف عن البكاء !

وحين يكبر قليلاً يبدأ يميز بين الأشياء ، فيعرف أن القطة والكلب والكتكوت
والعصفور أحياء حقيقية ، لأنها تأكل وتشرب وتحرك مثله .. أما اللعبة والعصا
وغيرها فليست حية حقيقية .. ولكنه مع ذلك - لفرط حيويته وسعة خياله - يضيف
على هذه الكائنات الجامدة حياة من عنده .. ثم يصدقها ! فهو حين يكلم اللعبة أو
يضربها أو يربت عليها لا يتعامل معها على أنها جامدة .. إنما هي حية أو شبه حية
فى خيال لا يميز تماماً بين الحقيقة والخيال .. وحتى حين يكبر عن ذلك ويركب
العصا على أنها حصان ، ويضربها لتجري ، ويعلم أنه هو الذي يجرى فى الحقيقة
لا العصا .. حتى عندئذ فهو يعلم الحقيقة ولكنه يحب أن يخلع الحياة على هذه العصا
الجامدة .. ويحب أن يرى الخيال كأنه حقيقة !

ولكنه يفاجأ يوماً بمحاذة الموت .. حادة عنيفة فى حسه ..
يفاجأ بها فى موت القطة التي يلعب بها ، أو فى عصفور ميت .. أو فى أحد
أقربائه ..

يفاجأ بأن القط أو العصفور لا يتحرك .. ويحاول أن يطعمه أو يسقيه فلا
يستجيب .. ويسأل عندئذ : لماذا لا يتحرك ولا يأكل ولا يشرب ؟ فيقال له :
إنه مات ..

عندئذ تحدث المفاجأة الضخمة ! .. مات ؟! وما معنى الموت ؟!
ويتعلم أن معناه فقد الحركة والقدرة على أن يأكل ويشرب وينطق .. ومعناه
أنه سيفيق عن عالمه فلا يعود ..

هذه الصدمة الحادة التي تحزنه حزناً بالغاً لا تغيب عن حسه بعد ذلك أبداً .. لأنها
تتكرر - ولا بد أن تتكرر - فتغيب عن عالمه أشخاصاً أو أشياء عزيزة عليه .. ويظل
في كل مرة يلذعه الألم على فراقها ..

ويكبر الطفل ويكبر .. فلا تزول عنه هذه الآثار بل تتعمق .. وكلما كبر
وازدادت روابطه توثقاً مع الأشخاص والأشياء زاد تأثيره بمن يغيب منها عن
الوجود ..

هذه الظاهرة ، ظاهرة الموت والحياة ، عميقة الأثر جداً في حياة البشر
ومشاعرهم .. لا ينجو منها حتى أبلدهم حساً .. ولا يمكن أن تمر في حياتهم بغير
اهتزاز يطول أو يقصر ..

ثم لا يمكن أن تمر دون أن توظف في حسم سؤالها عما وراء هذه الظاهرة
العميقة التأثير .. كيف تحدث الحياة ؟ تلقائية ؟ وكيف تكون تلقائية ؟ أليس لابد
لها من موجد يمنح الحياة ؟

ولماذا تتوقف ؟ لماذا يحدث الموت ؟ لماذا لاتعيش الأحياء إلى الأبد محتفظة
بكل حيويتها ؟

وماذا وراء الموت ؟ هل هو النهاية ؟ ألا تعود الحياة إلى الأحياء أبداً .. في
آية صورة من الصور ؟

تلك التساؤلات التي لا ينجو من وقعها الكائن البشري ، هي توقعات
مؤثرة في أوتار القلب ، تبعثه يبحث عن الخالق المحيي المميت .. الذي

يمنح الحياة ويأخذ الحياة .. ثم يهتدي فيعرف الله على حقيقته ، أو يضل فيتصوره
قوة من القوى ، أو شيئاً من الأشياء ..



الأحداث الجارية التي لا تكف عن الحدوث والتتابع .. هي أيضاً ذات توقعات
على أوتار القلب البشري .. كيف تحدث الأحداث ؟ ماذا وراءها ؟ ومن
وراءها ؟

تحدث خبط عشواء ؟ أم تحدث بتدبير ؟ وما سر التدبير وما حكمته ؟

هذا الطفل الوليد الذي يموت وأهله في لحظة حادة إلى وليد .. وذلك الشيخ
الذي وصل إلى أرذل العمر ولما يترشح بعد !

هذا الشاب الذي مات في عنقوان شبابه ووراءه أسرة كان يعولها لا عائل لها -
في المنظور - غيره .. وذلك المريض الذي لا يقوى على الحركة ولا يأتيه الموت بعد !

هذا الحادث الذي أصاب السيارة فتجا منه فلان .. وفلان إلى جواره تماماً
لم يبق منه جزء على جزء !

هذا الغني الذي لا يعرف لأمواله حصراً ولا لإنفاقه حدوداً .. وهذا الفقير الذي
لا يجد قوت يومه ..

هذا الذي يرزق الأولاد والأحفاد حتى تنفد عن طاقة مشاعره .. وذلك
الذي يتلهف على ولد واحد يخلفه في الحياة ..

هذا الملك الذي هو .. والملك الذي احتل مكانه ..

تلك الأيام المتداولة بين الناس ..

هل هي خبط عشواء ؟ هل وراءها سر ؟ هل يحكمها تدبير .. ؟
ومن صاحب التدبير ؟ !

ألا إنها شيء محير .. حتى أبلد الناس حساً لا ينجو من الحيرة منه .. والتفكير
فيه ..

م يروح يتساءل : مَنْ وراء الأحداث ؟ وماذا وراء الأحداث ؟ .. تم
يهتدى إلى الله الحق ، أو يضل في التيه ..



عجز الإنسان الدائم يلجئه إلى التفكير في القدرة التي لا يعجزها شيء ..
يولد الطفل عاجزاً تماماً عن كل شيء .. ولولا أمه ترضعه ، وتأخذه في
حضنها وتقضي له حوائجه كلها ما أمكن أن يعيش ..
ثم يبدأ يحس بالقدرة على بعض الأشياء ..
يبدأ يحرك أصابعه .. ويحرك يده .. ويحرك عضلات ساقه وأصابع قدميه .
ويحرك رأسه .. ولكن هذا كله داخل حضن الأم ما يستطيع أن يغادره بعد ..
ثم يحس بمزيد من القدرة .. فهو الآن في خارج الحضن يتحرك بعض الحركات .
ويفرح فرحاً هائلاً ولا شك بمقدرته تلك .. ولكنه يتطلع إلى المزيد ..
ويأتي يوم يحبو فيه على الأرض .. إنه يتطلع إلى الوقوف والمشي !
ثم يقف ويمشي يترنح ويسقط ثم يعود فيقوم .. إنه يتطلع إلى الوقوف الثابت
والمشي المتمكن ..

ويصل إلى ذلك ذات يوم .. إنه يريد أن يطول النافذة وأكرة الباب ..
ويطول هذه وتلك ذات يوم .. ثم يتطلع إلى مزيد من القدرة ومزيد من القوة
ومزيد من التمكن ..

ويكبر .. كما شاء الله له أن يكبر .. ويبلغ من القوة مداه .. فهل يتوقف عن
التطلع لحظة ، ويكتفي بما وصل إليه من التمكين ؟
كلا إنه ليحس بمزيد من العجز كلما بلغ مزيداً من القدرة !!

إن تطلعاته لا تقف عند حد . وكلما توصل إلى شيء من القدرة أغراه ذلك
بالتطلع إلى المزيد ، فيحس بالعجز عن ذلك المزيد .. ويحاول من جديد .. ويصل
إلى شيء مما يريد .. فيتطلع .. فيحس بالعجز ..

لقد فجر الطاقة النووية .. ووصل إلى القمر .. وقد يصل غداً إلى أغوار جديدة
في الكون الفسيح ما كان يحلم بها من قبل .. فهل أشبعه ذلك كله فكف عن التطلع؟
أو أرضاه فلم يعد يحس بالعجز؟

كلا إنه في الحقيقة يريد ألا يعجز أبداً ! يريد أن تكون له السيطرة الكاملة
على كل شيء .. يريد أن يقول للشيء كن .. فيكون !
يريد — باختصار — أن يكون إلهاً في الكون ! ولن يكون !

لذلك فما فتىء يحس بالعجز ، مهما وصل إلى الأفلاك ، ومهما سخر من
الطاقات !

وعجزه الدائم ذلك يلجئه إلجاءاً إلى التفكير في تلك القدرة التي لا يعجزها
شيء ، من وراء هذا الكون الهائل الذي لا يقدر هو على شيء منه .. إلا فتناً
من القدرة لا يغنيه .. ولا يرضيه ..
عندئذ ينطلق يبحث عن تلك القدرة القادرة .. فيهتدي .. أو يعمى في الضلال
البعيد ..



الرغبة في استكناه الغيب رغبة حادة ملحة لا ينجو منها بشر في الأرض ..
والعجز عن استكناه الغيب أمر لا مفر من الشعور به في القلب البشري ..
ويروح الناس — منذ القدم — يحاولون على معرفة الغيب ، ويحاولون استشفاف
ما يأتي به الغد القريب أو البعيد ..

لجثوا إلى الكهانة والعرافة والتنجيم .. وراحوا يستلهمون الرؤى .. ويستلهمون
الاحاسيس الباطنة في داخل النفس ، التي لا تعتمد على منطق واضح ولكنها تشير ..
لجثوا إلى كل وسيلة يحاولون بها إزاحة الستر عن الغيب المحجوب عن الأعين ..
المغلف بالأسرار .. ولم يصلوا قط إلى يقين ..
كل ما يصلون إليه تكهنات تخطف أو تصيب ..

ريظل العجز باقيا كما هو .. حادا كما هو .. واللهفة لا تريم ..

إنه ليس عجزاً عن استكنائه الغد البعيد وحده .. ولا الغد القريب وحده .. بل هو عجز عن استكنائه ما يحدث بعد ساعة واحدة من الزمان .. بل بعد لحظة .. بل في هذه اللحظة التي أطل جزء منها من عالم الغيب ، وبقيتها مغلفة بالأسرار ! ويعود الإنسان من رحلته الملهوفة وراء الغيب ، وعجزه الكامل عن استكنائه .. إلى القوة المحيطة بهذا الغيب ، لأنها العليمة به .. لأنها هي صانعة .. يعود إلى الله ! سواء عرفه على حقيقته أم ضل عنه إلى سواء !



تلك أوتار فطرية في القلب البشري ، أودعها الله في الفطرة ، لتتلقى إيقاعات الكون والحياة والوجود .. لتتهز بما تتلقى من إيقاعات ، فتنتطق تبحث عن الله .. إنها - كما نستطيع أن نقول - موحيات العقيدة في القلب البشري ..

والقرآن - وهو يعرف الناس بالله - يوقع على ذات الأوتار المودعة في الفطرة .. ليهزها فتستيقظ ، ويحركها فتتفاعل .. وفي لحظة انفعالها يقول لها : إنه الله ! .. ثم يقول لها :

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه !) (١)

(إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسيبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضيراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبها

وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون
وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى
عما يصفون . بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة
وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل
شيء فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك
الأبصار ، وهو اللطيف الخبير (١)

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط
من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى
كتاب مبين) (٢)

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض
وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيى
الأرض بعد موتها . وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا
أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ،
وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يشكرون . ومن آياته خلق
السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن
آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون .
ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيى به الأرض
بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض
بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات
والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله
المثل الأعلى فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم) (٣)

(لله ما فى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد . ولو أن ما فى الأرض
من شجرة أقلام والبحر عده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز

١ - سورة الانعام ٩٥-١٠٣-٢ - سورة الانعام ٥٩ ، - ٣ سورة الروم ١٧-٢٧

حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير (١)

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حياء تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (٢)

(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً (٣)

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه . قال : من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون . أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن . فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٤) .

(هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا

١ - سورة لقمان ٢٦ - ٣٠

٢ - سورة فاطر ١١-١٣ ٣ - سورة طاهر ٤٤ ٤ - سورة يس ٧٧ - ٨٣

مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحى ويميت ، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن .
فيكون (١)

(الله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً . ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير) (٢)



إن الحس البشري ليتبدل على المنظر المكرور والتجربة المكرورة فلا تعود تهزه كما هزته أول مرة .. ولا يستشعر لها الوجيب والحركة الوجدانية التي صاحبته أول مرة وهي تلقى بشحنتها الكاملة للحس المتفتح المتوفر .. ومن هنا تفقد دلالتها ، فلا تعطى توقيعها الصحيح على أوتار القلب البشرى .. لأن هذا القلب قد « ران » عليه ما يجعله لا يستجيب ..

وهنا يأتي القرآن بطريقته الفذة فيمسح تلك القشرة الصلدة التي رانت على الحس فتبدل .. ورانت على القلب فلم يعد يستجيب .. ولكأنما — حين يزيل تلك القشرة الجاسية — يصل إلى العصب الحى ، فيطلق له الشحنة فيتلقاها بكاملها .. كأنما يتلقاها أول مرة .. فيهتز لها اهتزاز التجربة الجديدة .. وينفعل بها كمن يعيشها أول مرة .. وحين يبلغ الاهتزاز ذروته ، والانفعال بالتجربة أشده ، يقول له إنه الله ! .. إنه الله الخالق المبدع المصور .. إنه الله الرزاق .. إنه الله المحيى المميت .. إنه الله مدبر الكون كله بكل ما فيه .. إنه الله عالم الغيب والشهادة .. إنه الله القادر الذى لا يعجز قدرته شيء ..

إن « المعلومات » فى ذاتها ليست جديدة .. أو ليست كلها جديدة .. بعضها على الأقل — بل كثير منها — « معلوم » من قبل . ولكنه ذلك العلم الميت البارد الساكن الذى لا يتحرك .. ولكن القرآن « يحيى » هذه المعلومات .. يعرضها فى

جوه الوجداني الحى ، بطريقته المعجزة ، فتنفض حية .. كأنها ليست هى الي
كنا نعرفها من قبل !

هل تغيرت ؟ كلا ! إنما نحن الذين تغيرنا ! حين زال عن حسنا التبدل للمنظر
المكرور والتجربة المكرورة ..

ولقد صنع القرآن ذلك في قلوب الذين تلقوه أول مرة .. سواء منهم من أسلم
وجهه لله وآمن ، ومن كابر وجحد :

(وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم) (١) كالوليد بن المغيرة الذي نزل في حقه
هذه الآيات :

(ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا مملودا ، وبينين شهودا ، ومهدت
له تمهيدا ، ثم بطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه
فكر وقدر ، فقتل ! كيف قدر ؟ ! ثم قتل ! كيف قدر ؟ ! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ،
ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ! إن هذا إلا قول البشر .
سأصليه سقر ...) (٢)

وكذلك ظل القرآن يصنع في قلوب الأجيال المتتالية خلال أربعة عشر قرنا ..
وسبظل كذلك حتى تقوم الساعة ، يبعث ذات الهزة فى وجدان الذين يتلون به بصيرة
متفتحة :

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (٣)



ولكن القرآن وهو يوقع على أوتار القلب الفطرية تلك التوقيعات المؤثرة العميقة
بعد أن يزيل عنها « الران » الذى علق بها من آثار تبدل الحس .. لا يصنع ذلك من
أجل تكوين « معلومات » جديدة عن الله سبحانه .. إنما من أجل « الإيمان بالله » ..
وفرق هائل بين إنشاء معلومات عن أية قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القضية ..

١ - سورة النمل ١٤ ٢ - سورة المدثر ١١-٣٦ ٣ - سورة ق ٣٧

إن « المعلومات » مهما كانت حية في حينها ، جديدة ولا معة ، لابد أن ينطفى .
لمعانها بعد فترة ، وتنطمس معالمها .. فتموت ! ولا تعود تعطي ذلك الإشعاع
المشرق الذى يمكن أن تعطيه في مبدأ الأمر .. فضلاً على أنها عرضة - دائماً -
أن تنحصر في محيط الذهن ، فتصبح قضايا ذهنية لاعلاقة لها بالواقع .. يدور الذهن
فيها ويدور .. ثم يخرج من الدورة حيث كان ! ويظل السلوك البشري سائراً
في طريقه لا يتأثر بتلك القضايا الذهنية ولا يتغير ..
ولكن « الإيمان » شيء آخر مختلف تماماً .. إنه يستند إلى تلك المعلومات ..
نعم .. ولكنه يستند إليها لينطلق منها ، لا ليبقى جاثماً عندها ولا منحصرأ فيها .
الإيمان حركة ..
الإيمان طاقة ..

حركة تجيش في القلب فتحركه بوجدانات شتى ، وتبعث فيه انفعالات حية
متدافعة لا تسكن ولا تهد .. ولا تموت .

وطاقة تنفجر في محيط النفس كلها فتحرك فيها أدق ذراتها ، فتلمس آثارها
فى داخل النفس وفى خارجها .. عملاً وسلوكاً .. وأفكاراً ومشاعر .. كما تلمس
آثار الطاقة المغنطيسية والكهربية .. فى الآلة الدائرة والمصباح المنير ..

والذى كان القرآن ينشئه فى القلوب هو الإيمان بالله ، وليس مجرد المعرفة
الذهنية بالله .. والذين يعرفون الله على طريقة الإيمان هم الذين يسميهم القرآن :
« الذين يعلمون » ويسميهم « أولو الألباب » .

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟! إنما يتذكر
أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر
الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه
ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدروأن بالحسنة السيئة .
أولئك لهم عقبى الدار ...) (١)

وهكذا يتحول « العلم » بأن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق ، إلى عمل وسلوك ومشاعر ، لأنه يتحول من « معلومات » إلى « إيمان » !
هذا « الإيمان » بالله هو الموضوع الرئيسي في القرآن كله .. وهو بطبيعة الحال الموضوع الرئيسي في العقيدة ..

وحين كان القرآن المكّي ينتزل خلال ثلاثة عشر عاما من الزمان لا يتحدث إلا في العقيدة ، كان التركيز الأكبر ولاشك على الإيمان بالله لأنه هو الركن الأول والأكبر في العقيدة ، ثم في بناء الإسلام كله فيما بعد .. في التنظيمات والتشريعات والتوجيهات ...

والقرآن يوثق هذا الإيمان في القلب بأن يربط ذلك القلب بالله في جميع أحواله .. لأنه يربط الحياة كلها والوجود كله بالله .. والقلب البشري - في أي حالة من حالاته وفي أي لحظة من لحظاته - لا بد أن يكون مرتبطا بشيء ما في هذه الحياة ، وشيء ما في ذلك الوجود ! فإذا كانت الحياة كلها والوجود كله مرتبطا في كل لحظة وفي كل حالة بالله ، فقد ارتبط القلب البشري بالله ..
فالمولد والممات بيد الله ..

والرزق بيد الله .. سواء كان الرزق مالا أو جاها أو صحة أو أبناء أو أي لون من ألوان الرزق .. كلها بيد الله ..
والأحداث الجارية بالنفع والضرر كلها بيد الله ..
والغيب المغلف بالأستار متعلق بعلم الله .. لأنه من صنع الله ..
هذا كله في الدنيا ..

ثم البعث والحساب بيد الله ..
والثواب والعقاب بيد الله ..
فأي شيء يمكن أن يتعلق به القلب البشري في أية لحظة من لحظاته ليس بيد الله ؟

وأي لحظة من لحظات هذا القلب في الدنيا أو الآخرة خارجة عن علم الله أو عن ملكوت الله وتدير الله ؟

ومن ثم يعيش القلب البشري فى هذا القرآن حياته كلها مع الله ، حين يطمع
وحين يخاف . حين يرجو وحين يخشى . حين يحب وحين يكره . حين يكون فى
واقعه وحين يكون فى خياله . حين يعيش فى دائرة الحب وحين يستشرف ما وراء
الحس . حين يكون وحده وحين يكون فى الجماعة . حين يؤدى شعائر العبء
وحين يكدح فى فجاج الأرض ..

وتلك هى « بذرة الإيمان » التى يبذرهما فى القلب لتؤتى ثمارها على الطريق ..
طريق الإيمان !



هذه البذرة التى يتعهدا وينمىها بالمزيد من التوقيعات على أوتار القلب .. من
لفت الحب البشرى إلى ضخامة الكون الهائلة ، إلى دقته المعجزة ، إلى الإحياء
والإماتة ، إلى الأحداث الجارية وما وراءها من تدبير .. إلى بيان قلرة الله التى
لا يعجزها شيء فى السماوات ولا فى الأرض .. إلى علم الغيب ...
هذه البذرة تنمو بالتعهد الدائم لها فتكون منها نبتة ذات ثمار ..
تكون منها عبادة لله .. وطاعة لله ..

إن مقتضى شعور القلب البشرى الحق بالوهية الله وربوبيته أن يشعر بالعبودية
الحقة لذلك الإله الذى عرفه على حقيقته ، وعرفه فى جميع صفاته .. فتكون العبودية
الحقة مقابل الألوهية الحقة والربوبية الحقة ..

ويشعر القلب المؤمن بكرامته كلها فى تلك العبودية الحقة لله .. وبمقدار ما
يذل ذاته لذات الله ، ويخضع ذاته لذات الله ، ويسلم قيادته لذات الله ، يكون
أنسه وبشره وفرحه وانطلاقه وشعوره بالرضا .. وشعوره بالوجود ! لأنه بكل
ذلك يقترب من الله ، فيشمله النور الرباني فيتغلغل فى ذرات كيانه .. فيحس
بحقيقة الحياة ..

ولكن هذه المشاعر .. مشاعر العبودية .. والأنس بها والفرح والرضا والانطلاق ،
ليست هي الغاية الأخيرة ولا القرار الأخير (١)
لابد من الطاعة لله .. وتلك هي الثمرة .. ثمرة العبادة لله ، والإيمان بالله ..
الطاعة لله فيما أمر به وما نهى عنه من أمر ..
الطاعة في التكاليف « التبعية » كالتكاليف « التشريعية » كتكاليف « الجهاد »
في الأرض .. كلها سواء ..
وبغير هذه الطاعة تظل المشاعر معلقة لا وزن لها في واقع الأرض .. وتظل
« العبادة » كذلك غير محققة في واقع الأمر !
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢)
ولا تتم العبادة إلا بالطاعة .. ولا تتم الطاعة حتى تتمثل في عمل وسلوك لا
في المشاعر فحسب ..

ولم تكن في العهد المكّي الذي استغرقه كله الحديث عن العقيدة ، ومعظمه
في الحديث عن الإيمان بالله .. لم تكن هناك « تكاليف » بالمعنى الذي جاء فيما
بعد في العهد المدني ، سواء التكاليف التبعية أو التشريعية والتنظيمية أو الجهاد
بالأنفس والأموال .. ولكن كان هناك الإعداد النفسي والروحي لهذه التكاليف ..
كان الوصول بالبصرة الإيمانية إلى مرحلة التسليم لله والطاعة لله .. الطاعة من حيث
المبدأ .. الطاعة في الكبيرة كالصغيرة .. الطاعة حباً لله .. وخشية لله .. وعبادة لله ..
وحين تمت تربية هذه القلوب على الطاعة لله ، وعلم الله منها صدقها وتجربتها ..
جاءت التكاليف .. فجاءت على قلوب قد استعدت لها من قبل .. فلم يكن هناك
جهد في الطاعة ، وإن كانت التكاليف مجهدة كالصوم والقتال ، وإن احتاجت إلى

١ - عند هذه الغاية تلقف معظم خطوات الصولية : وهم يصلون في هذا الطريق ، طريق « تربية الروح »
إلى مجالات شغالة رائقة مضيئة جميلة ولاشك . ولكن الطريق في حقيقته لا ينتهي عند هذه الغاية مالم يصحبها
« العمل » الذي يترجم هذه المشاعر إلى واقع سلوكي في كل مجالات الحياة التي أمر بها الله ، والا لسيظل
كل هذا المجال الروحي قاصراً عن بلوغ الغاية من العبادة : « كلا ! لما يقض ما أمره » .
٢ - سورة الداريات ٥٦

مجاهدة النفس لتقوى على التكليف لا لتقرير مبدأ الطاعة الذي كان قد تقرر من قبل واستقر في هذه القلوب !

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معلودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر . وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) (١)

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٢)

(ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدؤوكم أول

مرة ؟ أتخشونهم ؟! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (٣)

وهكذا .. وهكذا .. كانت هذه التكاليف في حاجة إلى المجاهدة المستمرة لتقوى النفوس عليها ، ولكن مبدأ الطاعة لم يكن موضع مراجعة من المؤمنين ، حتى وهم ينكرون أحياناً عن التكليف ، ويتلقون على ذلك النذير :

(يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقلمت إلى الأرض ؟ أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (٤)

إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً) .

(قل : إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٥)

وهكذا كانت التربية القرآنية على الإيمان بالله .. التي بدأت بقوله تعالى :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ..) (٦) ثم طوفاً بالقلب البشري في

١ - سورة البقرة ١٨٣ - ٢ - سورة البقرة ٢١٦ - ٣ - سورة التوبة ١٣
٤ - سورة التوبة ٣٨-٣٩ - ٥ - سورة التوبة ٢٤ - ٦ - سورة العلق ١ - ٥

مجالى الكون الواسع الفسيح .. فى السماوات والأرض والأفلاك. فى المطر النازل من السماء ليحيى الأرض بعد موتها .. فى النبات المختلف الألوان والأشكال والمذاق .. فى الليل والنهار .. والقمر والنجوم .. فى أطوار الخلق من النطفة والعلقة والمضغة .. فى علم الله الشامل الذى يعلم الحبة فى ظلمات البر والبحر ، والورقة الساقطة من غصنها والثمرة المفتحة فى كمها .. فى تدبير الله المحكم .. فى بسط الرزق وقبضه .. فى الإنسان وعجائب خلقه .. فى كل ما حول الإنسان مما يقع بصره عليه ومالا يستطيع أن يراه .. طوفت به فى تلك المجالات كلها ليرى الله أمامه فى كل شيء ومعه فى كل لحظة ، ورقبها عليه فى كل عمل أو فكر أو هاجسة أخفى من السر. ثم ليقول له إن هذا الإله القادر هو الذى سيحاسبه يوم القيامة وليس من لقائه مفر ، ولا من حسابه مفر .. وأن له على خلقه الذى خلقه حق العبودية وحق الطاعة له وحده دون شريك .. لأنه هو الله الواحد الذى ليس له شريك ..

تلك هي الثمرة ..

توحيد الألوهية والربوبية .. لتوحيد الطاعة وتوحيد العبودية ..

إله واحد .. ومعبود واحد ..

لا إله إلا الله .. أى لا معبود إلا الله .. ولا طاعة إلا الله .. وإلا فهي عبادة الشيطان ، وطاعة الشيطان ..

وذلك هو المعنى الحقيقي للإله إلا الله ، الذى نزل القرآن المكى كله لتثبيته فى القلب وترسيخه وتوثيقه .. لأنه المعنى الذى تقوم عليه الحياة الإيمانية كلها .. فلا تعبد إلا الله فى عقيدة القلب ، ولا تعبد إلا الله فى شعائر التعبد ، ولا تعبد إلا الله فى التشريعات والتنظيمات التى تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض ..

وما كان هذا الجهد كله الذى بذل فى العهد المكى — واستمر فى العهد المدني — ليعلم الناس أن هناك إلها ، فهم يعرفون ذلك بالفطرة ، بلا كتاب ولا رسول ، ولا ليعبدوا ذلك الإله بأى نوع من أنواع العبادة ، فهم يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم !

إنما كان ليعلموا أنه إله واحد لا شريك له ، فيعبدوه وحده بلا شريك ..
ويعبدوه كما أمرهم هو سبحانه أن يعبدوه .. لا على هوى أنفسهم ثم يزعمون
أنهم عباد .. ومخلصون !

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون) (١)
فالعبادة الطاعة .. والطاعة اتباع ما أنزل الله ..

